النحـــــو العربـــــــي

رشيد بلحبيب

أستاذ النحو والصرف بقسم اللغة العربية

كلية العلوم الإنسانية ـ جامعة الإمارات المتحدة

النحو العربي (*)

جوليا كريستيفا (**)

لقد احتل النحو العربي مكانة متميزة ضمن أكبر إنجازات التفكير اللغوي في القرون الوسطى. ونحن نعني بالنحو العربي هنا، الأفكار اللغوية(١) للشعوب التي ظلت تحت هيمنة الخليفة طوال العصور الوسطى(٢)، إذ جميع المتخصصين في الثقافة العربية، يسلمون بالأهمية القصوى للغة في الحضارة العربية:

"فإذا كانت حكمة الرومان في عقولهم، وحكمة الهنود في خيالهم، وحكمة الإغريق في روحهم، فإن حكمة العرب في لغتهم" كما يقول المثل العربي(٣).

لقد أشاد عدد من المفكرين العرب ـ على مر العصور ـ بمكانة اللغة، ويظهر جلياً

(*) فصل من كتاب: (اللغة: ذلك المجهول)

Le langage, Cet inconnu- une initiation a la linguistque.
julia Kristeva Eddition du seuil P129

(**) باحثة ولسانية فرنسية معاصرة، جامعة الصربون ـ باريس.

(١) لاحظ أن تعريف كريستيفا للنحو العربي بأنه الأفكار اللغوية، تعريف يفتقر إلى الدقة، وهو تعريف يصدق بكثير من التجاوز على البحث اللغوي، وستظهر انعكاسات هذا الاضطراب في جعل مباحث المعجم والخط والأصوات وتاريخ اللغة والفيلولوجيا، تحت مسمى النحو العربي.

(٢) لم يستطع الكتاب الغربيون التخلص من تأثير الخلفية الصليبية ذات الأبعاد الحضارية والثقافية في التعامل مع الحضارة العربية الإسلامية، في اعتبار العرب غزاة ومستعمرين حاولوا فرض لغتهم وثقافتهم ودينهم على الشعوب المحتلة، كما أن تحقيبهم للتاريخ وفق رؤاهم المسيحية (القرون الوسطى) مع الاختلاف الجوهري في الدلالة، فبينما تمثل هذه الحقبة الظلام والتخلف لديهم، تمثل الإشراق والرقي عندنا.

(٣) يشبه هذا الكلام كلام الجاحظ في البيان والتبيين حين حديثه عن البلاغة.

أن هذا التعظيم نابع من إدراك أنه واجب وطني، وضرورة دينية في الوقت نفسه. فالكتاب المقدس للإسلام ـ القرآن ـ هو أثر مكتوب باللغة التي يجب فك رموزها[١] ونطقها نطقاً سليماً، من أجل الإفضاء إلى إرشاداته.

كثيراً ما توخينا تفسير النظريات اللسانية العربية باعتبارها مقتبسة من الإغريق ومن الهنود، وتشهد أمثلة كثيرة ـ في الواقع ـ[٢] على هذا: إذ نجد عند العرب نفس الخلافات بين أنصار الحرف الطبيعي وأنصار الحرف الاصطلاحي في اللغة، ونفس المقولات المنطقية الأرسطية، كالتي وجدناها عند الإغريق تماماً، يضاف إلى هذا أن تقسيم الأصوات إلى ثماني مجموعات وفق طريقة النطق الفيزيولوجية ـ المخارج ـ يوافق السطانات (stana) الثمانية لبانيني panini.

إلا أنه من المسلم به ـ بعد الآن ـ أنه إذا وجد اقتباس إغريقي أو هندي في النظريات اللسانية العربيه، فإنه يتعلق عموما بالمنطق، أما النحو فقد ظل مستقلاً كلياً. فقد ظهرت المراكز اللغوية العربية الأولى ـ منذ القرن الثاني للإسلام ـ في البصرة، وبعد فترة قصيرة في الكوفة، وعُدّ أبو الأسود الدولي (المتوفى سنة ٦٨٨م أو ٧١٨م) مؤسساً للنحو العربي.

تتميز النظرية اللسانية العربية بالتفكير الدقيق في أصوات اللغة، فقد قسمت الأصوات إلى شديد ورخو من جهة، وصفير وثقيل (takir)[٣] وقلقلة، من جهة ثانية.

هذه النظرية الصوتية، ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالموسيقى: فالخليل الفراهيدي (٧١٨م ـ٧٩١م تقريباً)[١]، لم يكن صوتياً ونحوياً متميزاً فحسب،.بل كان منظراً

(١) في هذا الإطلاق شيء من الغموض أو شيء من سوء الفهم، فالقرآن ليس له رموز في حاجة إلى فك، إنما هو وحي بلغة رفيعة بذل العلماء جهوداً جبارة في تفسير معانيها.

(٢) هذا الحكم أيضاً فيه عجلة، فضلاً عن أن المؤلفة لم تشر إلى مثال واحد من الأمثلة التي جعلتها كثيرة.

(٣) لم أتبين معنى هذه الكلمة، وهي محرفة في الأصل هكذا: takir ولا يوجد ما يقابل هذه الكلمة ضمن صفات الحروف فيما أعلم.

مرموقاً في الموسيقى، فمصطلح مثل "حركة" المستعمل في علم الأصوات، انحدر من الموسيقى.

يضاف إلى هذا أن كبار المحللين العرب مثل سيبويه، كانوا أول من أعطى الأوصاف الدقيقة للجهاز الصوتي، مضيفين إليها أوصافاً فيزيائية لحركة الهواء. وتحليلهم للنظام الصوتي، كان من الدقة بحيث استطاعوا أن يميزوا ـ متقدمين على غيرهم ـ العنصر الدال، والعنصر الصوتي (رباط)، والعنصر الخطي (علامة) للغة، مميزين أيضاً الصوائت من الصوامت، كما حددوا مفهوم الصوت مع مفهوم المقطع الصوتي، واعتبروا الصوامت جوهراً للغة والصوائت عوارض لها، كما أكملت التصنيف الصوتي عند العرب فئاتٌ فرعيةٌ دقيقة للأصوات، مصنفة بين الصوائت والصوامت، مثل حروف القلقة والأصوات الخفيفة.

هذا الاهتمام بالتكوين الصوتي للغة هو النتيجة الطبيعية، أو بالأحرى، هو التعبير عن اهتمام بالغ بنظامه الكتابي، إنه ـ في الواقع ـ سمة مميزة للحضارة العربية لمسألة الدين عبر النصوص المكتوبة، فقد ترافقت تفاسير القرآن ـ النص المقدس ذي الكتابة المقدسة[٢] ـ مع شرح رمزي لقيمة كل عنصر خطي للحرف. لقد حاولنا أن نفسر هذا التميز الخاص بالكتابة في الحضارة العربية، بالضرورة الاقتصادية والسياسية، التي دفعت الإمبراطورية العربية نفسها، إلى فرض لغتها ودينها وثقافتها على الشعوب المحتلة[٣].

يجب دون شك، قبول التفسيرين (السياسي والديني)، ولفت الانتباه إلى التطور الفني والزخرفي للنظام الكتابي العربي، دون اختزال لتميز مفهوم الكتابة في أسباب اجتماعية، فالنماذج الأولى للكتابة العربية تعود في الواقع، إلى حوالي

(١) هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، أبو عبد الرحمن البصري الفراهيدي (ت١٧٥هـ).

(٢) لا توجد كتابة مقدسة للقرآن، بل يوجد له رسم اختلف العلماء في كونه توقيفياً أو اجتهادياً.

(٣) ينظر الهامش رقم (١) ص البداية.

القرن الرابع، وقد صارت اقتباسات لرموز خطية للشعوب المجاورة، التي كثيراً ما سجلت الأصوات الجوهرية للغة بغموض ودون أي بحث زخرفي.

لقد ظهر الاهتمام بزخرفة الرموز الخطية منذ تكوين الدولة الأموية omeyyade، وأصبحت هذه الكتابة المسماة "الكوفية الأموية" الدقيقة والمتقنة صالحة لإثبات كل مراسلات الملوك منذ الخليفة عبد الملك في المجتمعات الخاضعة للإمبراطورية العربية، إذ بدأ تعلم اللغة وصارت الكتابة العربية في ظل القرآن موضوعاً مقدساً(١).

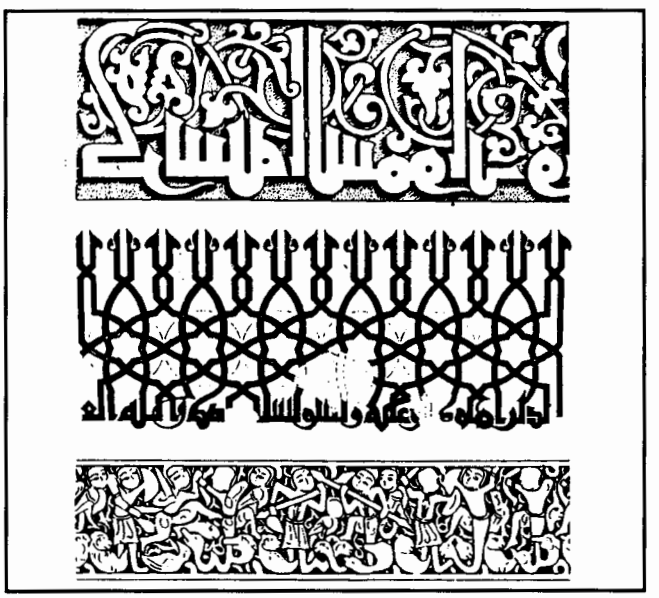

حروف مزخرفة للخط العربي، من الأعلى إلى الأسفل:

- خط كوفي يمتد فوق بساط مزهر مستقل.
- خط كوفي بإطار هندسي.
- خط زخرفي إنساني الشكل على قطعة جلدية(٢).

(١) الكتابة باعتبارها موضوعاً مقدساً، لا نعرف لهذا الرأي سنداً أو واقعاً، إلا ما كان من نظرة المستشرقين لبعض اللوحات الكاليغرافية، أو بعض رؤى المتصوفة.

(٢) Dapres: Janine sourdel thoumine: l ecriture et la psychologie des peuples. Centre international de synthese ED: Armande colin.

إننا لا نكتب لإثبات كلام ما فحسب: بل لإثبات أن الكتابة تمرين مرتبط بالممارسة الدينية، إنها فن، وكل شعب يضع أسلوبه الزخرفي الخاص بإنجاز هذه الأشكال الخطية.

هكذا بدأنا نشهد ازدهار الكتابة الجمالية، إلى جانب أنواع الأشكال الخطية النفعية، أو بتعبير أدق، بدأنا نلاحظ ـ إلى جانب فن الخط ـ إضافات واستطالات هندسية مزهرة لأشكال حيوانية مجسمة . .إلخ.

بعد زمن الازدهار، بدأت هذه الكتابة التجميلية (ابتداء من القرن الثاني عشر) تتراجع لتختفي في نهاية العصر الوسيط مع زوال الإسلام كدين غاز[1] غير أن النزعات التجميلية استمرت في الكتابة العربية المعاصرة، وظل لها دور ملموس في عالم، تحقق الكتابة فيه، الوحدة الإثنية لشعوب تتحدث لهجات مختلفة لكن، لنعد إلى النظرية اللسانية العربية، لقد كوّن علم المعجم فيها فرعاً مهماً، ونحن نعرف جهود عيسى الثقفي (توفي ٧٦٦م) القارئ الكبير ومؤلف سبعين كتابا في مجال النحو [2].

لقد أخذت الدراسات الصوتية والمعجمية والدلالية عند الخليل شكلاً منظماً وكاملاً، فقد كان مبتكر علم العروض العربي وقواعده ـ ولم يبق لدينا إلا الأبيات التي واكبت هذه القواعد ـ[3] كما كان مؤلف أول معجم عربي ـ كتاب العين ـ الذي رتبت فيه الكلمات ترتيباً غير ألفبائي، وفق مبدأ صوتي فيزيولوجي، متبعاً

(١) ينظر الهامش رقم (٢) ص البداية.

(٢) هو عيسى بن عمر الثقفي مولى خالد بن الوليد المخزومي، أخذ القراءات والنحو عن عبد الله بن أبي إسحاق، والحروف عن ابن كثير وابن محيصن . . روى عنه الأصمعي والخليل ومن في طبقتهم، ويقال إن له في النحو نيفاً وسبعين مصنفاً، لم يظهر منها سوى كتابين هما: الجامع والإكمال.

(٣) إشارة غامضة، إذ لا يعرف المقصود بالأبيات التي واكبت قواعد علم العروض ولعل المؤلفة تقصد بحور الشعر العربي الستة عشر وتفعيلاتها.

النظام الذي رتبت الأنحاءُ الهندية الأصوات وفقه: الصوتي، الحنكي .. إلخ

كما تبع في ترتيب المواد المنهج الإغريقي في التمييز بين النظري والتطبيقي: في القسم النظري، رتبت علوم الطبيعة (الكيمياء والطب)، والعلوم الرياضية وعلم الدين. وقد وُضع النحو بعد العلم الديني الإسلامي، وقبل القضاء والشعر والتاريخ.

وبعد ذلك قاد سيبويه ـ تلميذُ الخليل ـ النحو العربي إلى ذروته في مؤلفه "الكتاب" الذي يُعد أول وأكبر عمل تنظيري وتنظيمي.

لقد استطعنا أن نبين غياب نظرية نحوية للجملة عند هؤلاء النحاة العرب(١) وإذا كانوا يميزون الجملة الاسمية عن الجملة الفعلية، فإنه لم يكن لديهم تصورات للموضوع والمحمول، في الجملة الاسمية يشيرون إلى ما يقابل الموضوع عندنا من خلال مصطلح المبتدأ "الذي نبتدئ به"، وفي الجملة الفعلية من خلال مصطلح فاعل. كما نشير في هذا السياق إلى أن مصطلح "الموضوع" ما زال غائبا عن المصطلحية النحوية العربية إلى اليوم.

إنه واحد من المظاهر العديدة التي تطبع نوعية النحو العربي، الذي ظل بعيدا عن المنطق الأرسطي، ولم يرد أن يخضع تحليل اللغة لهذه المقولات بل ظل وثيق الصلة بالنظريات الخاصة بالإسلام.

لقد استطاع مفهوما القياس والتماثل، أن يقودا النحويين العرب إلى تنظيم اللغة العربية في صورة متناسقة حيث كل الظواهر معللة.

(١) في هذا الحكم تجن كبير على النحو العربي، يكشف عن جهل متوارث يكثر ترديده عند من تحدث عن النحو العربي ممن لا يعرف العربية، وهو حكم لا دليل عليه، وعناية النحو العربي بالجملة لا تقل أهمية عن عنايته بالإعراب، وجهد ابن هشام ـ في المغني ـ في تتبع خواص التراكيب والجمل بأنواعها وأقسامها لا يحتاج إلى برهان.

غير أن المتخصصين، لم يستطيعوا إغفال كون النحو العربي أكثر تجريبية من النحو الإغريقي، وأكثر ارتباطاً بالاعتبارات الانطولوجية ـ الدينية، إذ لم يشتغل الخليل وسيبويه، وكل الجيل اللاحق كفلاسفة، ولكن كقراءة القرآن، ومحللين لما يمكن أن يسمى في اللغة بالمنهج التعليمي.

لقد كانت مدرسة الكوفة ـ بعد مدرسة البصرة ـ مختصة بشكل واضح بالقراءات القرآنية، إذ ابتكر الفراء، نحوي الكوفة الكبير، مصطلحات جديدة حيث المنهج الأصلي ـ عنده ـ يرتكز على تنظيم الاستدلال النحوي عن طريق الاستشهاد بالشعر.

وكان لمدرسة البصرة أثر واضح في الجيل الذي تلا سيبويه، إذ سيتمركز هؤلاء الفيلولوجيون الجدد في بغداد التي قدمت، حوالي القرن الحادي عشر، عطاء حقيقياً لمجوعة من المنظرين والنحويين الذين سجلوا تقدما خطيراً في دراسة اللغة، نذكر منهم: المبرد الذي استطاع أن يجعل من كتاب سيبويه محوراً لكل دراسة للغة[١]، وثعلب العالم اللغوي المفتون بالمناظرات النحوية الكبرى[٢]. . إلخ.

كما أن عملاً مهماً في اتجاه "منهجة اللغة العربية وتنظيمها" systematisation، تم إنجازه من قبل عثمان بن جني (٩٤١م ـ ١٠٠٢م)[٣] مؤلف كتاب" سر صناعة الإعراب "الذي حدد فيه جوهر الحروف ووظائفها في أنفسها وفي علاقتها بغيرها من حروف الكلمة، و"الخصائص" الذي عرض فيه أصول النحو.

(١) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ) وقد أبان عن مذهبه النحوي من خلال كتابة "المقتضب" الذي طبع بعناية المرحوم عبد الخالق عضيمة.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن يحيى إمام الكوفيين (ت٢٩١هـ) وقد ألف في المناظرات كتابه الشهير "مجالس ثعلب" الذي طبع بتحقيق المرحوم عبد السلام هارون.

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ) والكتابات معاً ـ الخصائص وسر صناعة الإعراب ـ مطبوعان محققان.

إلى نهاية هذه المرحلة، يعود كتاب ابن مالك[1]، المولود في إسبانيا [2] سنة ١٢٠٦م والمتوفى بدمشق سنة ١٢٧٤م، مؤلف الألفية (المنشورة بالفرنسية من قبل سلفستر دو ساسي sylvester de Sacy، بعنوان: الألفية أو خلاصة النحو العربي سنة ١٨٣٣م) وهي شعر تعليمي من ألف بيت في النحو، عرض فيها ابن مالك نظرية صرفية، مميزاً من خلالها ثلاثة أقسام للكلام: اسم، وفعل، وحرف، لكن اهتمامه الأساس كان موجهاً إلى دراسة الإعراب الذي يمثل، سلفا، مقدمة للنحو.

في أثناء ذلك، ومع هؤلاء النحويين المتنوعين، أصبحت إسبانيا[3] مسرحا من المسارح المهمة لصناعة النحو العربي، إلا أن البحث اللغوي، افتقر إلى الأصالة بعد ابن جني، واكتفى الباحثون باجترار المصادر وتنسيقها، وقد ظل الموضوع الوحيد لهذه البحوث، اللغة العربية الموثوق بها، أو لغة الصحراء كما هي مدونة في الشعر البدوي، وفي القرآن، وليس في الشعر والنثر اللاحقين مطلقاً.

لقد اهتم النحويون الأوربيون مع ريموندليل Raymond lulle (١٢٣٥م – ١٣٠٩م) و، ج، س. سكاليجر J.C. Scaliger بخبرة النحويين العرب أيضاً، وإننا لنظن اليوم، أن مفاهيم الأصل والإعراب، كانت مقتبسة من الأنحاء العربية.

* * *

(١) في الأ صل "مالك"، والمقصود: ابن مالك، وهو أبو عبد الله جمال الدين محمد بن مالك الطائي (ت٦٧٢هـ).

(٢) يطلق الكتاب الغربيون على الأندلس، إسبانيا حتى في مراحلها الإسلامية، ولا يستسيغون تسميتها بالأندلس تجاهلاً لماضيها الإسلامي.

(٣) ينظر الهامش رقم (٢) ص البداية.